الدكتور عبد الله حنا

(الحركة الشيوعية السورية)

الفصل الأول
المراحل الأولى لظهور الحزب الشيوعي السوري

1945 - 1924

في أعقاب الحرب العالمية الأولى أخذ مفهوم انقسام المجتمع إلى أغنياء وفقراء ومن ثمّ إلى مستثمِرين ومستثمَرين ينمو باطراد بفعل التأثير المزدوج للثورة الفرنسية البرجوازية 1789 والثورة البروليتارية الروسية 1917. وكان هذا المفهوم – القديم في التاريخ قدم المجتمعات الطبقية – قد وضحت معالمه قبل الحرب العالمية الأولى على يد " الديمقراطيين الثوريين " أمثال فرح أنطون وشبلي شميل، ولكنه أخذ الآن طابعاً أكثر شمولية واتساعاً بفضل التطورات السياسية والاقتصادية – الاجتماعية، التي تسارعت وتائرها بعد الحرب العالمية الأولى ودخول المشرق العربي في دائرة الحكم الإمبريالي المباشر .

قبل الحرب العالمية الأولى وبعد زوال الحكم الاستبدادي للسلطان عبد الحميد على أثر قيام ثورة الاتحاد والترقي عام 1908 ساد نوع من الديموقراطية النسبية في سماء الدولة العثمانية , وظهرت الأحزاب السياسية ومنها الأحزاب العربية . قام في تلك الأجواء الجناح اليساري في الحركة الوطنية العربية الناشئة بإصدار صحيفة الاشتراكية في دمشق عام 1912 . حصل على ترخيص الجريدة حلمي الفتياني, الذي اشتهرت عائلته في نابلس والقدس بتولي عدد من رجالها منصب الإفتاء . وعاش حلمي فترة شبابه في دمشق وتزوج من عائلة دعدوش الدمشقية وأسهم في الحركة الفنية المبَكِّرَة في سورية مع أبي خليل القباني, ورافقه في رحلته إلى مصر تجنباً لضربات القوى المحافظة المعادية للفن والمسرح . ويبدو أن حلمي الفتياني تأثر أثناء إقامته في مصر بالجو التنويري السائد بين عدد من مثقفي مصر . وعندما عاد إلى دمشق بعد زوال الاستبداد الحميدي اشترك مع عدد من المثقفين التنويريين في نشر الأفكار الاشتراكية . وقد حصل حلمي عام 1912 على ترخيص بإصدار صحيفة " الاشتراكية ", التي عطلتها السلطات بعد شهر من صدورها . واضطر حلمي الفيتاني نتيجة مضايقات السلطة إلى مغادرة دمشق, تاركاً ابنته الوحيدة لدى أهل زوجته, وعاد إلى نابلس, وهناك شارك بعد الحرب في الحركة القومية العربية وعُرف في نابلس باسم خطيب الشعب , وتوفي في نابلس في مطلع الحرب العالمية الثانية [1].

* * *

المناهل, التي استقى منها الرواد الأوائل للحركة الشيوعية زادهم الفكري هي:

---

[1](1) هذه المعلومات لخّصناها من رسالة عادل الحموي- حفيد حلمي من ابنته الوحيدة, التي تركها في دمشق عام 1912- الموجهة إلى "الرفيق زياد الملا المحترم" بمناسبة نشره عام 1990معلومات عن حلمي الفيتاني في مجلة "دراسات اشتراكية". وعادل الحموي من المثقفين, الذين شاركوا بنشاط في الحركة الثورية بدمشق أواخر ثلاثينيات وأوائل أربعينيات القرن العشرين. ولزياد الملا الفضل الكبير في نشر سيرة حياة عدد من الشيوعيين الأوائل, كما سيرد معنا.

- التوجّهات الثورية واليسارية في حركات الثورات البورجوازية وتحديدا الثورة الفرنسية .

- الحزب الشيوعي الألماني . فقد نهضت الحركة الشيوعية الأرمنية في بيروت باسم منظمة سبارتاك. مقتبسة الاسم من يسار الاشتراكية الألمانية التي اتخذت عام 1919 اسم قائد ثورة العبيد سبارتاكوس . وكامل عياد الأب الفكري للماركسيين تأثر بالحزب الشيوعي الألماني أثناء دراسته في برلين . والأمر نفسه ينطبق على المهندس إحسان بهاء الجابري من حلب, الذي درس في ألمانيا ونشط في صفوف الحزب الشيوعي .

- الحزب الشيوعي الفرنسي ومواقفه المؤيدة لحركات التحرر العربية . ويلاحظ أن الجامعات الفرنسية كانت المدرسة الأساسية للطلاب السوريين واللبنانيين الشيوعيين منهم والليبراليين .

- أثر ثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا ونشاط الكومنترن بما أسسه من مدارس لتدريب الكوادر الشيوعية وما أرسله من مندوبين لمساعدة الأحزاب الشيوعية العربية الناشئة وتثقيفها .

- التراث العربي الإسلامي وما اختزنه من نماذج ثورية كانت منارة للمتطلعين إلى العدالة الاجتماعية .

- الوضع الاقتصادي الاجتماعي, الذي أخذت مفاعيل التغيير, بعد 1918 تهزّه مخلخلة بناه الفوقية . ولكن واقع ضعف الطبقة العاملة أو وجودها الجنيني خلق إشكالية عانت منها الأحزاب الشيوعية في البلدان غير المصنّعة . وهنا نرى أن الفكر سبق الواقع الاجتماعي وهذا الأمر أوجد خللاً بين النظرية والتطبيق .

*** * ***

يمكن تقسيم نشاط الحزب الشيوعي حتى مطلع الاستقلال إلى المراحل الأربع التالية:

المرحلة الأولى, التي بدأت مع تأسيس الحزب الشيوعي عام 1924 وانتهت عام 1930. وفي هذه المرحلة برز اسم مؤسسي الحزب اللبنانيان النقابي فؤاد الشمالي والمثقف التنويري يوسف إبراهيم يزبك . وفي هذه المرحلة جرى وضع اللبنات الأولى في صرح بناء الحزب . وفي دمشق برز اسم ناصر حده وفوزي الزعيم كمؤسسين للحزب الشيوعي بدمشق بمساعدة " الرفاق اللبنانيين " .

المرحلة الثانية (1930 – 1935), التي تبدأ مع إعلان الحزب الشيوعي السوري برنامجه المطبوع الصادر في 7 تموز 1931 من خلال وثيقة تبيّن " غايته القصوى وشيء من بروغرامه " [2]. جاء في البرنامج:

---

[2](1) العنوان الحرفي هو: " لماذا يناضل الحزب الشيوعي السوري, غايته القصوى وشيءٌ من بروغرامه " . طُبع هذا الكتيّب لذكرى إعلان الحزب الشيوعي السوري (7 تموز سنة 1930) .

" إن النظام الرأسمالي ليس منزلاً من عند الله، كما يدّعي البرجوازيون ".. " إننا نريد أن نضع حداً لاستثمار جهود العمال السوريين ".. " وكذلك الفلاحون فإنهم مستثمرون من الإقطاعيين وخدم الاستعمار والمرابين ورجال الدين والحكام ".. " النضال المستمر ضد الاستثمار الإقطاعي والرأسمالي".. " إنشاء حكومة العمال والفلاحين في سورية ".. " الاستقلال التام والوحدة السورية، سحب الجيوش المحتلة، إلغاء الانتداب ".. " الإخاء والتضامن بين جميع الشعوب المظلومة، وإيجاد جبهة متحدة بينها للنضال ضد الاستعمار، وأن تتحد مع طبقة العمال العالمية، التي هي العدو الأكبر للاستعمار"..

وبعد أن تشيد وثيقة الحزب الشيوعي السوري بالمثال التاريخي لتآخي الشعوب المختلفة في " اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية "، تطالب بـ: " تحرير الجموع السورية العاملة بدون فرق بين الجنسيات والأديان..".. " إيجاد جبهة متحدة بين جميع البلدان العربية للنضال والتضامن المشترك ضد الاستعمار" و" إيجاد حلف بين العمال والفلاحين في البلاد العربية ".

وفي هذه الفترة برز دور النقابي اللبناني فؤاد الشمالي كمؤسس للحزب, وصعد نجم سليم خياطة, ابن طرابلس الشام, كمؤلف لعدد من الكتب ذات النكهة الماركسية . وفي دمشق برز في حي السمانة فوزي الزعيم ابن الشيخ صلاح الدين الزعيم شيوعيا مرهوب الجانب من أعداء الشيوعية بسبب قوة شكيمته .

المرحلة الثالثة (1936 – 1940): وهي استمرار للمرحلتين الأولى والثانية ولكن بنوعية جديدة في مجال تكوّن الحزب سياسياً وتنظيمياً وفكرياً . وبرز ذلك واضحاً في غزارة البيانات (المناشير) والكراريس والمطبوعات النقابية والأدبية المختلفة . ومع هذه المرحلة بدأت ترتسم قيادة الشاب الألمعي والوطني المثقف والخطيب المفوّه خالد بكداش العائد من الدراسة في موسكو أوائل 1937. وقد دفعت قيادة خالد بكداش بالحزب قدماً إلى الأمام, وقدمت زخماً ملحوظاً للحركة الشيوعية السورية والعربية .

بعد توقيع مشروع المعاهدة بين الكتلة الوطنية وحكومة الجبهة الشعبية في باريس وتأليف الوزارة السورية الكتلوية في أواخر سنة 1936 ونجاح برلمان كتلوي, دخلت سورية في العهد، الذي أطلق عليه " العهد الوطني الأول " (1936- 1939). ونتيجة لذلك تمكّن الحزب الشيوعي السوري من العمل لأول مرة في تاريخه بصورة علنية في سنة 1937. ففتح مكاتب له في دمشق وحمص وحلب وغيرها . وقد تمكن الحزب بتاريخ 15 أيار 1937 من إصدار جريدة " صوت الشعب "[3], كما استطاع الحزب إصدار الكثير من النشرات والكراريس وتمكّن من نشر آرائه في عدد من الجرائد والمجلات المختلفة.

---

[3]- أغلقت السلطات الفرنسية جريدة (صوت الشعب) أواخر 1939، وعادت إلى الصدور في 20 كانون الثاني 1942.

ولكن تراجع الحركة الوطنية السورية وصعود القوى اليمينية في فرنسا والنشاط الوطني للحزب الشيوعي أدى في 19 أيلول 1939 إلى صدور قرار من المفوض السامي الفرنسي بحل الحزب الشيوعي وإغلاق مكاتبه واعتقال أعضائه إذا اجتمعوا أو تظاهروا .

المرحلة الرابعة (1940 – 1945): وتنقسم بدورها إلى فترتين: الأولى: فترة العهد السري وتمتد من أيلول 1939 حتى تموز 1941. والثانية: فترة العمل العلني وتمتد من تموز 1941 إلى ما بعد عام 1945.

وفي هذه الفترة التفّ حول الحزب جمهرة من المثقفين القادمين إلى الحزب من بوابة النضال الوطني, والمتلهفين إلى ارتياد منابع الفكر الماركسي , والذين شدّتهم في الوقت نفسه انتصارات الدولة الاشتراكية وبطولة أبنائها في مقاومة الاجتياح النازي للاتحاد السوفيتي .

عُقد " المؤتمر الوطني للحزب الشيوعي في سورية ولبنان "[4] في أواخر 1943 أوائل 1944، في بيروت، في ظروف دولية وداخلية ملائمة .

في أول كانون الثاني 1944 أقرّ المؤتمر الوطني " الميثاق الوطني للحزب الشيوعي السوري " كما أقر ميثاقاً مماثلاً، مع اختلاف بسيط ، للحزب الشيوعي اللبناني. كانت بنود الميثاق الوطني هي التالية :[5]

1- استقلال سورية وسيادتها التامة وتحررها الوطني الكامل .

2- نظام جمهوري ديمقراطي صحيح .

3- توثيق صلات التضامن الوطني بين الشعوب العربية لتحقيق تحررها الوطني الكامل .

4- توطيد الروابط الاقتصادية والثقافية بين سورية وجميع الأقطار العربية الشقيقة .

5- بسط السيادة الوطنية على المؤسسات المالية والصناعية والتجارية والأجنبية .

6- المساواة بين جميع السوريين على اختلاف أديانهم وعناصرهم وتحقيق روابط الإخاء والتضامن بينهم .

---

[4](1) وهو المؤتمر الأول للحزب الشيوعي السوري , وبعضهم يسميه المؤتمر الثاني معتبراً تأسيس الحزب سنة 1924 بمثابة المؤتمر الأول .

[5](2) بنود الميثاق الوطني منشورة في جريدة "صوت الشعب"، أعداد كانون الثاني 1944 وفي صفحات من "تاريخ الحزب الشيوعي السوري"، وثائق برنامجية وبعض الأبحاث والدراسات. نُشِرَ في الذكرى الخمسون لتأسيس الحزب الشيوعي السوري 1924 – 1974 بلا مكان وتاريخ الطبع. والجدير بالذكر أن الحزب الشيوعي السوري جناح خالد بكداش هو الذي نشر هذه الوثائق الهامة مع مقدمة من صفحتين جاء فيهما: "في عام 1924 اجتمع عدد من ممثلي الفرق الماركسية في سورية ولبنان وقرروا توحيد منظماتهم في حزب واحد. وأعلنت قيادة الأممية الشيوعية موافقتها على طلب هذه الطليعة الثورية من الشباب في 28 تشرين الأول من العام 1924.." والمقدمة, كما الوثائق المنشورة , لا تتضمن أية معلومة عن هؤلاء المؤسسين , ولم تشر إلى أسمائهم .

7- تأمين الحريات الديمقراطية العامة والفردية وفي مقدمتها حرية الضمير والكلام والصحافة والنشر والاجتماع والجمعيات والأحزاب والنقابات وحرية العبادة واحترام عقائد الناس الدينية .

8- تنظيم شؤون الإدارة والقضاء بروح ديمقراطية صحيحة والسهر على تسهيل مصالح المواطنين ونشر العدل بين الجميع .

9- تربية النشء تربية وطنية والاهتمام بالرياضة البدنية وتشجيعها ونشر الثقافة في البلاد وإحياء التراث الفكري العربي .

10- تعزيز مكانة رجال الفكر والعمل والفن وحماية الأساتذة والمعلمين .

11- تعميم المدارس في المدن والقرى وجعل التعليم الابتدائي مجانياً وإجبارياً .

12- العناية بالصحة العامة وضمانة المعالجة والمداواة مجاناً للمواطنين المعوزين .

13- حماية العائلة السورية من أخطار البؤس والجهل ورفع مستوى المرأة والعناية بصحة الأم والطفل .

14- رفع مستوى البلاد الاقتصادي وتنشيط التجارة وترقية الزراعة وتعميم مشاريع الري وحماية المشاريع الصناعية الوطنية وتشجيعها وتحسين المواصلات بين المدينة والقرية .

15- حماية صغار المنتجين في المدينة والقرية ومساعدتهم .

16- معالجة البطالة ومكافحة البؤس والفقر وتأمين معيشة الشعب .

17- حماية العمال بوضع تشريع للعمل يحفظ حقوقهم ويسوي العلاقات بينهم وبين أصحاب العمل على أساس العدل والمصلحة الوطنية .

18- تحرير الفلاح السوري من التأخر والبؤس والجهل .

19- رفع مستوى الموظفين والمستخدمين وتعزيز شأن المهن الحرة .

20- توزيع الضرائب توزيعاً عادلاً بين المكلفين وتخفيف العبء عن صغار التجار وصغار المنتجين بوجه عام .

إن الحكم على بنود الميثاق وتقويمها لا يمكن أن ينطلق من مفاهيمنا الحالية ومن نسبة القوى الطبقية الحالية، بل يجب فهم هذا الميثاق في إطار مفاهيم تلك السنوات والمستوى الثقافي لواضعي البرنامج ومدى تطور القوى المنتجة آنذاك ونسبة القوى الطبقية في أوائل أربعينيات القرن العشرين على أبواب الجلاء .

الفصل الثاني
حزب الشعب اللبناني (الشيوعي)
وبدوي الجبل

عام 1924 أسس عامل التبغ الشيوعي اللبناني فؤاد الشمالي نقابة عمال التبغ في لبنان، التي كانت على صلة بتطور الحركة النقابية العربية المصرية، وهذه كانت بدورها على اتصال بالحركة النقابية الثورية العالمية .

وجاء تأسيس " حزب الشعب اللبناني " سنة 1925، وهو حزب مستقل تأسس على قواعد طبقية، بمثابة حقل تجربة آخر للحزب الشيوعي الوليد . وكان تأسيس نقابة عمال التبغ تعبيراً عن استقلال سياسي بإمكانه أن يكون قاعدة لحزب عمالي

حقيقي . وهذا ما حدث بالفعل عندما انصهرت حول النقابة، في حزب الشعب، التيارات الأكثر تقدمية في لبنان . وجاء تدخل الأممية الشيوعية ليسرّع عملية تكوين الحزب الشيوعي في تنظيم ينادي باستقلالية الطبقة العاملة ودمج ما هو اقتصادي بما هو سياسي . وكان لدى حزب الشعب اتجاه لعدم الفصل بين النقابة والحزب . ولكن الحزب الشيوعي هو الذي قام فيما بعد بالفصل نظرياً بين النقابة والحزب .[6]

*** * ***

بمبادرة من حزب الشعب اللبناني صدرت في 15 أيار 1925 في بيروت جريدة " الإنسانية " تيمَّنا بجريدة " الأومانيته " لسان حال الحزب الشيوعي الفرنسي . صاحب الجريدة ومحررها العلامة يوسف إبراهيم يزبك ومدير الإدارة فؤاد الشمالي العامل الشيوعي المبعد من مصر, والذي سيترأس الحزب الشيوعي حتى 1932. حملت جريدة " الإنسانية " تحت اسمها العبارة التالية: " صحيفة أسبوعية أنشئت خصيصاً لخدمة العمال والفلاحين والمدافعة عن حقوقهم وتنظيم صفوفهم ", وحملت على يسارها شعاراً يزيد في تحديد هويتها, هو: " للفقير على الغني وللعامل على الرأسمالي ". ويعلو الاسم شعار ثانٍ: " اتحدوا أيها العمال ", وضع في أسفله عنوان يبسط إشارتها المميزة: (الإنسانية) هي جريدتك أيها العامل فاقرأها وأعطها لغيرك ليقرأها ".

*** * ***

وصل العدد الثالث من جريدة " الإنسانية " إلى الشاعر بدوي الجبل. فبعث بالرسالة التالية إلى صديقه يوسف إبراهيم يزبك, الذي نشرها في العدد الرابع من الإنسانية تحت عنوان: " هدية للعمال من بدوي الجبل, عاطفة شريفة لشاعرنا المحبوب ".

وفيما يلي نصّ رسالة بدوي الجبل:[7]

" أخي يوسف:

حمل إليّ البريد جريدتك وأنا في صهيون [8] إحدى مدن (الدولة العلوية)[9] فسررت لعملك وأكبرت غيرتك ...

---

[6](1) جاك كولان: "الحركة النقابية في لبنان 1919 – 1946" تعريب نبيل هادي. بيروت 1974. ص 35 .

[7](1) المنشورة في (الإنسانية) العدد 4 بيروت الأحد في 7 نيسان 1925 ص/7/.

[8](2) المقصود بابنا عاصمة منطقة صهيون, قبل أن تتحول إلى الحفة. ولا علاقة لها بالصهيونية. وجاء الاسم للمنطقة ولمن سكن حول القلعة المعروفة اليوم باسم محررها صلاح الدين. وكان اسمها السابق قلعة صهيون نسبة إلى قائد الفرنجة.

[9](3) هكذا ورد القوسان في الجريدة.

الرجاء أن ترسل لي نسخة واحدة وان تهدي أربع نسخ باسمي لمن تختارهم من العمال واشتراكات الخمس نسخ سأرسلها حين رجوعي إلى البيت وذلك بعد مدة قليلة .

لأول مرة أحيي الجرأة في هذه البلاد! أحيّها بكلمتك: ولا نبالي بالمبادئ السياسية ولا الاجتماعية ولا الأدبية ولا الدينية على اختلاف نزعاتها إذا كانت لا تهم العمال والفلاحين . فعشت يا يوسف ولا فضّ فوك ...

لا تؤاخذني على كتابي إليك بالقلم الرصاصي فما ذلك إلا لمعذرة مشروعة ولاسيما إني الآن من العمال , والعامل لا يتقيد بكل ما يسمونه آدابا أو قوانين اجتماعية .

عاش العمال وعاشت جريدة العمال : وعاش الناطق باسم جريدة العمال . الناطق بالحق وبالثورة وبالدم!

" بدوي الجبل

رسالة بدوي الجبل الشاعر الفذ والنسر المحلق في عالم الأدب والخطيب المفوه والسياسي الذائع الصيت في أرجاء سورية والمعروف بابتعاده عن اليسار, رسالته هذه المكتوبة عام 1925 بحاجة إلى تقويم من مختص بالشاعر الكبير وبمساره السياسي المتعرج والمتناقض أحياناً . وفي تقديرنا إن موقف بدوي الجبل هذا نابع من كونه ابن الريف, الذي عاش في كنف أسرة متنورة . ولا نعلم هل لهذا الموقف علاقة بالطموح إلى الحداثة؟.

*** * ***

لم يُعمّر حزب الشعب طويلا ولكن خلفيته الفكرية والسياسية عاشت في الحزب الشيوعي السوري المؤسس في بيروت في تشرين الأول 1924, والذي سعى لتأسيس النقابات العمالية، واحتفل, تحت اسم حزب الشعب, في بيروت في عيد الأول من أيار عام 1925. وكان ذلك نتيجة العوامل التالية:

- بداية ظهور التجمعات العمالية المستقلة عن أرباب العمل والحكام مثل نقابة عمال التبغ في بكفيا (لبنان) و" نقابة عمال منسوجات التريكو الوطنية " في دمشق .

- تبلور فكر عدد من المثقفين الليبراليين الشعبيين الطامحين إلى الاتصال بالفكر الاشتراكي دون أن يقطعوا جذورهم مع الفكر البرجوازي الثوري .

- نشاط الأممية الثالثة الشيوعية .

الفصل الثالث
ناصر الدين حدِّة وشيء من ذكريات الماضي
لإسكندر نعمة [10]

كنت ما أزال أتدرج عبر صفوف المرحلة الإعدادية، عندما بدأت أسمع باسم ناصر حدِّة. كان هذا الاسم يتردد كثيراً على ألسنة بعض الشيوعيين القدامى في بلدتنا ديرعطية . وكنت أسمع منهم مراراً أن ناصر حدِّة هذا هو أقدم شيوعي في سورية . بل هو مؤسس الحزب الشيوعي في سورية .

هكذا كان يتردد على ألسنة الكثيرين . وكنت أنا الطالب الفتى آنذاك، أنظر إلى هذه المقولات بإعجاب شديد واحترام، أن يكون مؤسس الحزب الشيوعي السوري، أو الشيوعي الأول في سورية من منطقتنا منطقة القلمون . وظلّ هذا الإعجاب والاحترام ينموان في ذهني وتصوراتي حتى تحقق لي التعرُّف إليه عن كثب، فقد جمعتني المصادفة به في بيته في يبرود مع مجموعة من الشيوعيين القدامى وبعض أصدقائهم، كنت أنا أصغرهم سناً، كان ذلك اللقاء بمناسبة الانتخابات البرلمانية عام 1954، لم يكن احترامي وإعجابي به عبثاً، فقد وجدت فيه تلك الشخصية الهادئة المطمئنة المبتسمة أبداً، وكان حديثه ينم عن خلفية ثقافية واسعة .

وسارت السنوات، وفي عام 1964 تخرجت في جامعة دمشق – كلية الآداب – وعيّنت في محافظة الحسكة مدرساً لمادة الأدب العربي. وكان مجال تدريسي في مدينتي عامودا والقامشلي في أقصى الشمال من الحدود السورية التركية. هناك في القامشلي، التقيت مجدداً ناصر حدِّة، ولكني كنت قد خرجت عن طور اليفاعة وأصبحت أكبر عمراً وأكثر نضجاً ومعرفة وإحاطة بمجريات الأمور. هناك التقيت ناصر حدِّة وقد هاجر إلى القامشلي منذ سنوات عديدة يعمل مزارعاً. وقد أرشدني إليه الأخوان:

---

[10](1) كنت اعتزم منذ فترة الكتابة عن الحركة الشيوعية, ولكن الأحداث وكثرة مشاريع البحث أخّرت الموضوع, إلى يومنا هذا. عندما روى لي صديق العمر اسكندر نعمة, الذي أغبطه على ذاكرته المتلألئة دائماً, ما سمعه عن ناصر حدة ودوره في شق الطريق أمام الشاب خالد بكداش لدخول الحزب الشيوعي , رجوته أن يكتب ما سمعه . وننشر في هذا الفصل ما جادت به ذاكرة إسكندر نعمة وبقلمه ، دون إضافة أو تحوير.

إلياس البطل وسليم البطل وهما شيوعيان قديمان. التقيته مراراً، وما أكثر ما جلسنا على انفراد ساعات طويلة. كان بيته في القامشلي منتدى وملتقى الكثيرين من رجال المدينة، ومن الوافدين إليها من دمشق وريفها. حدّثني كثيراً عن ماضيه، والحديث على عهدة الراوي.

قال ناصر الدين حدِّة: في أواسط العشرينيات وقبل بداية الثلاثينيات، كان الحزب الشيوعي في سورية ولبنان، ليس حزباً بكل معنى الكلمة. كان مجموعة من المثقفين والمطّلعين، الذين اطلعوا بشكل من الأشكال على مفاهيم الماركسية – اللينينية، وبعض نظريات الاشتراكية العلمية . وقد بهرتهم انتصارات الحزب البلشفي في روسيا، وقيام أول دولة في العالم للعمال والفلاحين تنهج نهج الاشتراكية العلمية، وتقف بثبات في وجه الرأسمالية العالمية وجشعها .

قال ناصر حدِّة: كنا مجموعة من الشباب في سورية ولبنان، نشكّل أولى الحلقات الماركسية، أو نواة الحزب الشيوعي وهم: أرتين مادويان ونظمي الرفاعي، وسواهما في لبنان. وفي سورية: ناصر حدِّة وفوزي الزعيم وآخرون (عذراً فقد نسيت أسماءهم الآن). ويتابع ناصر حدِّة: وكنت أنا صلة الوصل بين الفريقين، والمسؤول الأول في سورية من خلال هذا التنظيم المشترك .

كان ناصر حدِّة يتردد دوماً بين بلدته يبرود ودمشق وبيروت، وقد أقام حسبما أفادني صلات واسعة مع مثقفين تقدميين منهم: فهمي المحايري – ميشيل عفلق – كامل عياد . وقد حدثني في إحدى الجلسات بما يلي:

كنت أقضي فترة الصيف في يبرود، وهناك تعرفت إلى شاب كان يعمل كأحد عمال (النافعة) على الطرقات العامة . جاء هذا الشاب لزيارتي . شاب مندفع، مهيب الطلعة، تواق للمعرفة. عرّفني باسمه: خالد بكداش، أعجبت جداً بهذه الشخصية الشابة، وطلبت منه تكرار الزيارة، فلبّى الطلب . كنت أحدثه عن بعض مفاهيم الاشتراكية العلمية. وعن البناء الداخلي والتنظيمي في الاتحاد السوفييتي. كان يتلقى ذلك مسروراً وبلهفة شديدة، وقع اختياري عليه وتوسمت فيه مستقبلاً هاماً . وبعد عدة لقاءات، انتقل إلى بلدة عسال الورد القريبة من يبرود، صرت أذهب إليه، وأعطيته كتاب: البيان الشيوعي لماركس وأنجلز[11] . بعد ثلاثة أيام، جاء خالد بكداش إليَّ في منزلي، وقد وضع خطوطاً تحت بعض عبارات الكتاب . شرحتها له، وقرأت معه بعض فقرات من الكتاب المذكور، قبل أن يغادر منطقة يبرود إلى منطقة أخرى . طلب مني خالد بكداش أن ينتسب إلى تنظيمنا – الحزب الشيوعي – يقول ناصر حدِّة: (لم أعد أذكر لذلك تاريخاً دقيقاً). وعدته بتحقيق طلبه، تدارست الأمر مع الرفاق السوريين واللبنانيين . وهكذا تم قبول خالد بكداش عضواً في تنظيم الحزب الشيوعي آنذاك . وكانت صلته المباشرة معي فقط . ثم عرفته فيما بعد على بقية الرفاق في التنظيم .

---

[11]() كتاب البيان الشيوعي كان باللغة الفرنسية، التي يجيدها ناصر حدّة ويتقنها خالد بكداش. (المؤلف).

يتابع ناصر حدِّة في سهرات أخرى قائلاً لي: ظللت – أي ناصر حدِّة – مسؤولاً عن التنظيم في سورية . وكان خالد بكداش ينشط، وقد حاز على إعجاب بقية الرفاق . بعد سنوات، تم اجتماع موسع, أي ما يشبه المؤتمر لحدٍّ ما [12]. وفي هذا الاجتماع، طُرحتُ للمناقشة موضوع ابتعادي عن رئاسة التنظيم، وتسليم خالد بكداش هذه المهمة . وافق المجتمعون بالإجماع . وهكذا تمّ إعلان خالد بكداش أميناً عاماً للحزب الشيوعي السوري – اللبناني، وكان الحزب آنذاك – كما يقول ناصر حدِّة – قد أخذ هيكليته وتنظيمه كحزب نظامي متماسك .

سألت ناصر حدِّة آنذاك: " لماذا لم تبق أنت أميناً عاماً. ألم يكن ذلك أفضل؟ ". قال ناصر: لا. لقد وجدت أن خالد بكداش أقدر مني على قيادة الحزب، فهو شاب متحمس، وعلى جانب كبير من الاستيعاب النظري والفكري، وأتوسم فيه مستقبلاً أفضل للحزب .

حدثني ناصر حدِّة أيضاً. أنه في عامي 1929 و1930, وفي سبيل الحصول على لقمة العيش، عُيّن مدرساً لمادة الرياضيات في مدرسة الكلية الوطنية الإنجيلية في حمص . هناك تعرف إلى فرج الله الحلو تلميذاً له في الصف الحادي عشر . قال ناصر حدِّة: لم أجد في عمري شخصاً أكثر هدوءاً واتزاناً ولطفاً ودماثة أخلاق واجتهاد مدرسي وحب للمعرفة والإطلاع أكثر من فرج الله الحلو . أصبحت صديقاً له وليس أستاذاً فحسب . وقد وجدت أن بذور مفاهيم الاشتراكية العلمية مغروسة في ذهنه وأعصابه، ولكن على نحو عشوائي . تابعت معه الطريق، وأعددته إعداداً كاملاً ليكون شيوعياً في المستقبل. وبعد نواله الشهادة الثانوية انتسب إلى صفوف الحزب الشيوعي عن طريق الرفاق في لبنان .

حدثني وحدثني ناصر حدِّة كثيراً. وفي جملة ما حدثني به . أنه أثناء وجوده في الأمانة العامة للتنظيم التقى مع شخصية شيوعية كبيرة، اسمه محمود الأطرش [13]. وقد قال لي ناصر حدِّة: إن محمود الأطرش هذا كان مندوباً من الكومنترن لمساعدة الشيوعيين, وهو من الحزب الشيوعي الفلسطيني . وقد التقاه في بيروت مرتين .

طلبتُ – والطلب هنا لكاتب المقالة – كثيراً من ناصر حدِّة أن يكتب هذه المعلومات، ويوثقها زمنياً بشكل مذكرات . لكنه لم يفعل، وأعتقد أن علاقاته الاجتماعية الواسعة كانت تطغى على وقته. ووقعت أنا بالخطأ ذاته فلم أسجّل هذه المعلومات، بل ظلّت حبيسة الذاكرة إلى اليوم . عندما أنهى ناصر حدِّة علاقته بالزراعة ومنطقة الجزيرة، وعاد إلى بلدته يبرود . كان يزورني كثيراً في ديرعطية، وعندما بدأت في أوائل السبعينيات أزمة الحزب وانقساماته تظهر إلى العلانية وتتفاقم، كان ناصر حدِّة وهو

---

[12]() جرى هذا الاجتماع الموسع في أوائل 1937 بعد عودة خالد بكداش من موسكو، التي أقام فيها من أواخر عام 1933 إلى أوائل 1937.

[13]() سيرد شرح لمحمود الأطرش فيما بعد، وهو جزائري الأصل فلسطيني المولد. انتسب إلى الحزب الشيوعي الفلسطيني وزار موسكو للدراسة، وأوفده الكومنترن لمساعدة الحزب الشيوعي السوري.

بعيد عن صفوف الحزب يتألم بمرارة . وقد عبّر عن ذلك في أحاديث كثيرة. ولم يلبث بعد ذلك أن توفي فجأة، فقد كان يعاني السكري والضغط وتصلّب الشرايين، ودفن في بلدته يبرود دون أن يترك أثراً مكتوباً يوثق هذه المعلومات وغيرها الكثير .

مما أثار دهشتي وامتعاضي بآن واحد، وأنا أسير في جنازة المرحوم حدِّة أقدم شيوعي في سورية، أن أحداً ممن يمثلون الحزب آنذاك لم يحضر ويشارك في جنازته، وكأن ناصر حدِّة شخص عابر لا علاقة له بالحزب الشيوعي، ولم يكن في يوم من الأيام الشيوعي الأول في سورية.

ولكن مما يجدر ذكره، أنه بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاته، أقام له أهله وذووه حفل استقبال وغداء، حضرتُ المناسبة وكان بين الحاضرين أربعة رجال عرفت منهم مراد يوسف الذي عرّف عن المجموعة بأنهم وفد من الحزب الشيوعي السوري.

بقي أن أذكر أن المرحوم ناصر حدِّة من مواليد يبرود عام 1906، وقد توفي في أواخر عام 1973، ودُفن في بلدته يبرود مخلّفا ثلاثة أولاد: عمر، سعيد، همام.

* * *
* *
*

ملاحظات المؤلف حول بعض ما نقله اسكندر نعمة عن لسان ناصر حدّة:

الملاحظة الأولى: تتعلق بأن حدة يروي أحداثا لاسكندر مضى عليها ما يقارب أربعة عقود من الزمن. ونعمة ينقل حديث حدة بعد مرور أكثر من ثلاثة عقود, مع العلم أن ذاكرة اسكندر نعمة الوقّادة القادرة على إعادة ما سمعه بحرفيته, لا يُشق لها غبار . ولكنّ النقل عن طريق الذاكرة بعد توالي السنين لا يخلو من هنات ...

الملاحظة الثانية: تتعلق بزمن تسلُم خالد بكداش قيادة الحزب الشيوعي بدمشق . والأمر الثابت أن اجتماع اللجنة المركزية الموسع بين 3 و 7 شباط 1937 أقرّ بالإجماع انتخاب خالد بكداش أميناً عاماً للحزب وكان أهلا لاعتلاء هذا المنصب . أما الإشكالية فتتعلق بالسؤال التالي: هل تسلَّم بكداش هذا المنصب قبل سفره للدراسة في موسكو؟. مذكرات محمود الأطرش الجزائري الأصل الفلسطيني المولد عضو الحزب الشيوعي الفلسطيني ومندوب الكومنترن لمساعدة الحزب الشيوعي السوري تشير أن خالد بكداش كان القائد الفعلي للشيوعيين بدمشق قبل سفره إلى موسكو . فقد جاء في ذكريات محمود الأطرش أن خالد بكداش وضع في أواخر1933 أمام أمانة الحزب قضية سفره للدراسة في الاتحاد السوفييتي . وكان هيكازون بوياجيان يعارض هذا

السفر, لأن مجال العمل الحزبي يزداد كل يوم توسعاً, بشكل لا يسمح بنقص في الإطارات الحزبية الأساسية . وأثناء الاجتماع ترك محمود الأطرش الخيار لبكداش, الذي قرر السفر " وقد توجه خالد إلى موسكو في أوائل كانون الأول سنة 1933 مع أنه كان قد انتخب أمينا عاما للحزب . وكانت البلاد تغلي كالمرجل بالنضال "[14].

ذكريات أرتين مادويان تشير إلى أن خالد بكداش انتحب في أوائل عام 1931 سكرتيرا لمنظمة الحزب بدمشق. ولكنه لم يبق في هذا المنصب أكثر من عام بسبب سفره في أوائل 1933 إلى موسكو للدراسة الحزبية [15]. ومن هنا جاء عدم التأكيد من ناصر حدة حول زمن وصول بكداش إلى القيادة .

الملاحظة الثالثة: الهامة جدا هي قيام ناصر حدة بإعطاء " البيان الشيوعي " لخالد بكداش ومذاكرة الاثنين في بعض نصوصه, ومن ثمّ مبادرة بكداش بترجمة البيان الشيوعي من الفرنسية إلى العربية وطبعه عام 1933. والمستغرب أن خالد بكداش, حسب علمنا, لم يُشِر في أحاديثه المكتوبة أو مقالاته المتعلقة بالماضي إلى موقع ناصر حده في الحزب ودوره في مرحلة التأسيس .

الملاحظة الرابعة: أن ناصر حدة يعترف بأهلية خالد بكداش للقيادة , ولم يكن منافسا له , بل تنحى جانبا تاركا لمن توسم فيه الخير أن يقود الحزب الشيوعي .

الملاحظة الخامسة: تتعلق بعدم مشاركة قيادة الحزب الشيوعي في جنازة ناصر حدة . ونستطيع الجزم أن خبر الوفاة لم يصل إلى مسامع القيادة إلا مؤخرا . ولذلك شاركوا في أربعينيته . ودليلنا على ذلك أن قيادة الحزب قامت بتكريم ناصر حدة , قبل أن تدركه المنية وبعدها , في عدة مبادرات منها : تأمين سفره للعلاج في مستشفى اللجنة المركزية في موسكو عام 1971 , إيفاد ابنه البكر عمر لدراسة الطب في الاتحاد السوفييتي, إيفاد ابنه الأصغر همام لدراسة الميكانيك في موسكو . ومن هنا يتبين أن قيادة الحزب الشيوعي المتطلعة إلى معرفة تاريخ الحزب في مرحلة التأسيس لم " تقصّر " في واجبها إزاء المؤسس الأول للحزب [16].

---

[14](1) نقلاً عن يوسف خطار الحلو. ص 366.

[15](2) مادويان أرتين. ص110.

[16](1) ومن الابن الأصغر المهندس همام حدة أخذنا بعض المعلومات أثناء لقائنا به في منزلنا بدمشق بتاريخ 14/12/2006.

الفصل الثامن
من رواد الحركة الشيوعية في سورية

لم يكن بالإمكان تغطية جميع الرواد . واقتصرنا هنا على من استطعنا اللقاء بهم قبل الرحيل , أو من وصلتنا أخبارهم المدوّنة , وكذلك ما ورد في كتاب زياد الملا . [17] **ويدل نشاط هذه الكوكبة من الرواد أن قيام الحركة الشيوعية ونهوضها (ولا نتكلم هنا عن فترات الانحسار) لم يكن ثمرة جهد فرد بل هو حصيلة جهود عشرات المندفعين الطامحين في بناء مجتمع حر سعيد, ومنهم هؤلاء الرواد .** [18]

* * *

1- فؤاد الشمالي: من قرية سهيلة في كسروان، ولد سنة 1894 فقيراً معدماً, وتوفي في سنة 1939 فقيراً معدماً . هاجر إلى مصر ونفي منها عام 1924 بسبب نشاطه الشيوعي . بعد عودته إلى لبنان أسس " النقابة العامة لعمال التبغ " في بكفيا . وهو مع يوسف إبراهيم يزبك مؤسسا الحزب الشيوعي اللبناني في الرابع والعشرين من تشرين الأول سنة 1924 . ألف عام 1928 كتاب " نقابات العمال في لبنان ". نُفيَ بسبب نشاطه الوطني ودعمه للثورة السورية إلى قلعة القدموس وجزيرة أرواد . شارك في المؤتمر السادس للأممية الشيوعية عام 1928 مندوباً عن الحزب الشيوعي . اختير عام 1928 الأمين العام للحزب الشيوعي وأبدى نشاطاً مذهلاً في عمله واتصف بـ" اليسارية العمالية ", وبقي أميناً عاما للحزب حتى أوائل عام 1933 حيث أُزيح من منصبه كأمين عام للحزب, وأبعد عن الحزب إبعاداً كلياً بتهمة علاقته بالأمن . بعض مجايليه كيوسف خطار الحلو يرون أن تهمة علاقة الشمالي بالأمن باطلة, وهذا رأي ناصر حدّه, الذي صرّح به لإبراهيم قندور, في حين أن ما كتبه أرتين مادويان يلقي ظلالاً من الشك المقترن باليقين بعلاقة الشمالي بالأمن وإرشاده إلى من كان يعمل معهم . والخبر اليقين هو في الوصول إلى أرشيف الأمن وهذا متعذر علينا, إما بسبب إحراق الفرنسيين الفيشيين في براري بيروت عام 1941 قسماً كبيراً من أرشيفهم, أو بسبب تعذر الوصول لأسباب مالية إلى الأرشيف الموجود في فرنسا .

ونحن نرى أن الشمالي عاش في حياته السياسية المأساة بأجلى معانيها . ولد فقيراً ومات فقيراً عام 1939, ولم يكن يملك ناصية اللغة للكتابة ولم تكن له عصبية, ومع ذلك كافح وناضل وكتب . وبعد طرده من الحزب أصدر عام 1936 كتابه " الاشتراكية " تضمّن مناقشة صريحة وجريئة حول الاشتراكية في التطبيق وفيه معلومات عن الاتحاد السوفييتي .[19]

---

[17] لزياد الملّا فضل كبير على هذا الفصل, عندما التقى بعدد من هؤلاء الرواد وسجّل ما سمعه منهم أو عنهم وسطّره في كتابه: " صفحات من تاريخ الحزب الشيوعي السوري (1924 – 1954)" دمشق 1994. وبفضل عمله تمكنا من سدّ كثير من الفجوات .

[18] هذه الكوكبة من الرواد لا تمثّل إلا جانبا من جوانب نشاط الحركة الشيوعية السورية . ونأمل أن يتمكن باحثوا المستقبل من سدّ الفراغ والكشف عن أولئك الجند المجهولون , الذين طواهم الزمن .

[19] **يوسف خطار الحلو ... ص 388 .**

أليست حياة الشمالي, سواء صحّت التهمة أم كانت مجرد ظنون, هي المأساة بعينها؟. واستمرت المأساة بعد موته بإلصاق التهمة به, وهو الذي أفنى حياته في الكتابة عن العمال والدفاع عنهم بالوسائل المتاحة له في ذلك الزمن ... وعاش فقيرا ومات فقيرا , فهل يعقل أن يبيع نفسه للأمن ؟ .. وأين ذهبت الأموال التي أخذها , إذا مات وهو لا يملك شروى نقير ؟ ..

2- سليم خياطة: طرابلسي (لبناني) المولد, ماركسي الهوى ومن المنادين بالوحدة العربية . عقد لهذا الغرض وبمساعدة الكوادر الشيوعية مؤتمراً للمثقفين العرب في معلقة زحلة عام 1934 لبحث قضية الدعوة للوحدة العربية . أمضى فترة من حياته في دمشق واسهم في كتاباته في نشر خط ماركسي في تحليل الأحداث . وله دور بارز في شق الطريق للأفكار الماركسية في المشرق العربي . من كتبه: حمّيات في الغرب (1933), على أبواب الحرب (1934)، والحبشة المظلومة (1936). اعتقلته سلطات الاستعمار الفرنسية الفيشية عام 1940 وبسب التعذيب الشديد وضربه على الرأس ظهرت عنده حالات ضياع وأوجاع في الرأس اعتزل الحياة وتوفي سنة1965 .

وقد لعب خياطة دوراً أساسياً في تطوير مجلة " الدهور ", التي صدرت في بيروت عام 1930, وكان صاحبها إبراهيم حداد من أنصار " الاشتراكية الديموقراطية ". ومع الزمن اتخذت " الدهور " خطاً قريباً من الفكر الماركسي, وكان من كتاب المجلة الماركسي سليم خياطة وميشيل عفلق وفؤاد الشايب وإبراهيم الكيلاني .

3- ارتين مادويان: ولد في أضنة عام 1904 وتفتح وعيه على المآسي والمجازر, التي لحقت بالأرمن بين عامي 1908 و1920. تعلم لفترة في استنبول وغادرها إلى بيروت ملتحقاً بأقاربه, الذين نزحوا بسبب المجازر, التي حلّت بالأرمن . وفي بيروت أسس منظمة سبارتاك اليسارية الأرمنية متأثرا بالحزب الشيوعي الألماني, الذي حمل الاسم نفسه . أسهم في تأسيس الحزب الشيوعي ونظّم توزيع البيان الصادر باسم الحزب بالفرنسية, الذي يدعو جنود الجيش الفرنسي لتأييد الثورة السورية وتحويل سلاحهم بوجه ضباطهم [20]. أمضى مادويان حقباً من حياته في السجون, واستمر نشيطاً في قيادة الحزب الشيوعي حتى وفاته . وله مذكرات منشورة بعنوان: " حياة على المتراس, ذكريات ومشاهدات ".

4- هيكازون بوياجيان: عضو جمعية سبارتاك الأرمنية اليسارية في بيروت , وأحد مؤسسي الحزب الشيوعي ومن أبرزهم إخلاصا وتضحية . سكن في زحلة, وفي صيف 1928 أوفدته القيادة إلى دمشق للإسهام في تأسيس منظمات للحزب فيها . سكن بوياجيان في حي شعبي وفتح عيادة طب أسنان ومارس المهنة دون شهادة . وقام بنشاط فائق الوصف عاملاً على نشر الشيوعية وتنظيم معتنقيها كما رأينا . اعتقل أكثر من مرة بسبب نشاطه الشيوعي كما نُفي إلى الرقة وفيما بعد إلى جزيرة أرواد .

---

[20] مادويان أرتين " حياة على المتراس , ذكريات ومشاهدات " , دار الفارابي بيروت 1986 . ص75 .

وسنرى من خلال رواية سعيد السواس أن هيكازون نشط في أواخر ثلاثينيات القرن العشرين في حلب وأسس مكتبة فيها .

5 - نسيب الاختيار : ولد في دمشق عام 1912 وتخرّج من مدرسة اللاييك فيها متقنا اللغتين العربية والفرنسية . وقد اطلع على الماركسية عن طريق اللغة الفرنسية , وعمل في شبابه على نشرها . انضمّ في ثلاثينيات القرن العشرين إلى ندوة المأمون التقدمية التي ضمّت علي خلقي , فؤاد الشايب واليان ديراني وغيرهم . وكانت ندوة أخرى معارضة لها ذات طابع محافظ ضمّت علي الطنطاوي وأنور العطار وجميل سلطان .

تشير بعض اللقاءات التي أجريناها مع الشيوعيين القدامى على أن نسيب الاختيار كان نشيطا ثقافيا في أواخر الثلاثينيات . فكثيرا ما ألقى الخطب في اجتماعات الشيوعيين وشارك في الاجتماعات التي كانت تُعقد في البيوت , وقام بترجمة كراريس من الفرنسية إلى العربية توضّح مشكلات عامة مثل الأوضاع في النقابات وغيرها .

نشر الاختيار في الصحف الدمشقية مجموعة دراسات عن الاستعمار تظهر توجهه الفكري الماركسي . كما ألّف عام 1938 كتابا تحت عنوان " مأساة أسبانيا " وقف فيه إلى جانب الجمهوريين مهاجما الجنرال الفاشي فرنكو , الذي تقدم من جنوب أسبانيا للقضاء على الحكومة الجمهورية في مدريد .

كان نسيب الاختيار لا يملك بيتاً ولا يشغل وظيفة, بل كان يومها عاطلاً عن العمل يأخذ نفقات يومه من والده الضابط المتقاعد مراد بك الاختيار, الذي عمل ردحاً من الزمن في السعودية في حاشية الملك عبد العزيز آل سعود فادخر مبلغاً من المال اقتنى به داراً في حي الجسر الأبيض. فسبحان الله كيف يسخّر المال السعودي لإعاشة الماركسي نسيب الاختيار!!.

لا نعلم مدى العلاقة بين نسيب الاختيار والحزب الشيوعي . ويبدو أنه ابتعد عن الحركة الشيوعية والصحافة السياسية في الأربعينيات وانصرف إلى التأليف الأدبي وعمل في إذاعة دمشق , وشغل منصب رئيس دائرة النشر والثقافة في الإذاعة , ومارس تدريس الأدب العربي ورئس عددا من الصحف اليومية الدمشقية .

قام نسيب الاختيار في خمسينيات القرن العشرين بتأليف الكتب التالية :

1 – " الشعر الصوفي " إصدار المكتبة الأهلية بيروت – مطبعة اليقظة دمشق .

2 – الفن الغنائي عند العرب " دار بيروت 1955 .

3 – محمد الأمين ابن هارون الرشيد " , دار الرواد بيروت 1955. وتضمن الكتاب فصلا معبرا تحت عنوان : خليفة يلهو وشعب يكدح ..

4 – مصر الثورة منشورات عويدات بيروت .

6- علي خلقي: ولد عام 1909 في دوما وبدأ يتعرف على الفكر الماركسي عام 1925 . وكانت له إسهامات فكرية في إطار عمله في الحزب الشيوعي أو حوله . كان على صلة بحلقة الأدباء الشباب المتنورين, التي تكونت من كامل عياد وسليم خياطة ونسيب الاختيار وبعض الشباب المتصلين بالثقافة الغربية أمثال فؤاد الشايب وصلاح الدين المحايري وغيرهم . وهذه الحلقة دخلت في سجال فكري مع حلقة محافظة منها محمد البزم وعلي الطنطاوي . أصدر خلقي كتاب " ربيع وخريف " عام 1931, وهو مجموعة قصصية تعدّ الأولى في سورية . وقد وضع مقدمته الداعية الماركسي سليم خياطة, الذي أقام فترة من الزمن في دمشق .

7- رشاد عيسى: من مواليد دمشق عام 1911 . نال شهادة الحقوق عام 1933 . انتسب إلى الحزب الشيوعي عن طريق خالد بكداش . وكان في اربعينيات القرن العشرين الشخصية الثانية في الحزب بعد خالد بكداش . ويذكر مصطفى أمين أنه كان من الشيوعيين المتميزين بثقافته الرفيعة . وأورد ظهير عبد الصمد في ذكرياته المنشورة في " دراسات اشتراكية " أن رشاد عيسى كان يزور كل أسبوعين منظمة حمص لمساعدتها في نشاطها . ويذكر عبد الصمد أن رشاد عيس طبع المنظمة بطابع أفكاره وسلوكه . فصل من الحزب بسبب موقفه النقدي لسياسة قيادة الحزب الشيوعي, الذي أيد الاتحاد السوفيتي في موقفه من التقسيم . وعمل في المحاماة وفي نقابة المحامين حتى وفاته .

8- محمود الأطرش (أبو داوود): ولد في يافا عام 1903من أبوين جزائريين هاجرا هرباً من الاضطهاد الاستعماري . انتسب إلى الحزب الشيوعي الفلسطيني عام 1925, والتحق بالمدرسة الحزبية في موسكو عام 1927. أوفده الكومنترن إلى سورية ولبنان لمساعدة الشيوعيين فيهما . أمضى في سورية ولبنان من عام 1933 إلى ربيع 1936. أسهم أبو داوود مع سليم خياطة في تحضير وثائق مؤتمر زحلة سنة 1934, الذي دعا إلى الوحدة العربية . أبعدته سلطات الانتداب الفرنسي إلى فلسطين عام 1936 وسجنته سلطات الانتداب البريطاني ستة أشهر . بعد الحرب الثانية انضم إلى الحزب الشيوعي الجزائري . كتب مذكراته , التي تلقي أضواء ساطعة على الحركة الشيوعية في سورية وفلسطين بالإضافة إلى نشاط الكومنترن . ولا تزال هذه المذكرات مخطوطة كانت في أرشيف اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي الألماني الموحد, الذي حكم ألمانيا الشرقية حتى 1990.[21]

---

[21]- وقد سعى كاتب هذه الأسطر للحصول على مذكرات الأطرش عن طريق أصدقائه من الباحثين الألمان. وتبين نتيجة البحث أن المذكرات غير موجودة سواء في الأرشيف المركزي لألمانيا الاتحادية. أو في أرشيف وقفية روزا لوكسمبورغ , الذي انتقل إليه القسم الأكبر من أرشيف اللجنة المركزية .

9- مصطفى العريس: من مواليد بيروت ونشطاء الحزب الشيوعي وأحد قادة الحركة النقابية اللبنانية دخل السجون أكثر من مرة وحلّ في سجون دمشق وحلب مع رفيقه فؤاد قازان بسبب اشتراكهما في إحياء ذكرى موقعة ميسلون في 24 تموز 1934 . [22] صدر له كتاب " مصطفى العريس يتذكر " , التي تروي ايضا تفاصيل واسعة عن الاحتفال والاعتقال في سجون دمشق وحمص وحلب .

10- كامل عياد: التجأ مع والده إلى سورية عام 1911 هرباً من الاحتلال الإيطالي لطرابلس الغرب . درس في برلين (1922 – 1930) وكانت أطروحة الدكتوراه عن ابن خلدون , وحاز على أساسها دكتوراه في الفلسفة . تأثر في برلين بنشاط الحزب الشيوعي الألماني وكتب في صحفه مقالات عنيفة ضد الاستعمار . شارك عام 1934 في مؤتمر زحلة الداعي إلى الوحدة العربية، وأسهم في صدور مجلة "الطليعة" الدمشقية اليسارية التنويرية بين عامي 1935 – 1939, وعُرف بأحاديثه وشروحه المبسطة للمبادئ الماركسية وتوصيلها إلى أذهان الشباب المثقف التقدمي في ثلاثينيات القرن العشرين . لم ينتظم في الحزب الشيوعي ولكنه كان على صلة وثيقة به . وهو عملياً الأب الروحي للماركسيين في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين . كان أستاذاً مرموقاً في كلية الآداب في الجامعة السورية . ومن كتبه: لينين والفلسفة .

والطريف في الأمر ما نقله زياد الملا عن كامل عياد قوله: رجاني ميشيل عفلق, في عام 1934, أن أزكيه للانتساب للحزب الشيوعي, فرفضت, وكنت على حق, إذ شعرت وقتذاك, أن يساريته لم تكن كما يجب .

11- منير سليمان: من مواليد عام 1913 في سوق ساروجة بدمشق . جده سليمان باشا الكرجي والي صيدا . نزح والده إلى دمشق واستقر فيها, وكان يملك عدداً من البيوت والحقول . درس في اللاييك ونال البكالوريا عام 1928. سافر عام 1930 إلى فرنسا ودرس في السوربون علم الاقتصاد الاجتماعي ورجع سنة 1934. قبل ذهابه لفت انتباهه نشاط خالد بكداش مما كوّن لديه, كما رأينا, أرضية للانضمام إلى الحزب الشيوعي الفرنسي سنة 1931. بعد عودته إلى الوطن اجتمع بناصر حدة وفوزي الزعيم وانضمّ إلى الحزب الشيوعي السوري, وأصبح الصلة بين الحزب والمثقفين . وهو من الذين أسهموا في تأسيس مجلة " الطليعة " التقدمية في آب 1935. وذكر أن قادة الحزب عندما عاد من باريس عام 1934 هم: ناصر حده, فوزي الزعيم, نقولا شاوي, فرج الله الحلو ويوسف خطار الحلو . قام منير سليمان بتنظيم دورات تعليمية اقتصادية بعد 1940, وترجم سنة 1942 " الاقتصاد المنهاجي في الاتحاد السوفيتي ". وله عدة دراسات عن الاقتصاد السوري .[23]

12 - فوزي الشلق: والده حمزة الشلق رئيس محكمة الاستئناف بدمشق وكان رجلا يحب عمل الخير وهو مؤسس جمعية الإسعاف الخيري . ولد فوزي عام 1912

---

[22] عن جريدة " القبس " 13 أيلول 1934

[23]1- جرى اللقاء به في بيته بدمشق بتاريخ 11/8/1974.

بدمشق ودرس في اللاييك وحاز البكالوريا عام 1930. توجه في العام نفسه إلى جامعة كان في النورماندي لدراسة الميكانيك والكهرباء . وهناك بدأ يتفتح وعيه الاشتراكي, وشدّته مقالات جريدة الحزب الشيوعي الفرنسي " الأومانيته " وكفاح الطبقة العاملة, كما تابع باهتمام محاكمات جورج ديمتروف, الذي اعتقلته السلطات الهتلرية واتهمته بحرق الرايخستاغ عام 1933. عاد إلى دمشق عام 1936 وقام بأعمال حرة مثل تركيب الراديوات, وأسس مع مهندس الكهرباء رشيد جلال معملاً يستورد قطع أجهزة الراديو لتطبيقها, مطلقين على هذا الراديو اسم " كروان راديو ". وذكر فوزي أن فريد جلال هو أول من أنتج فلما صامتا اسماه " تحت سماء دمشق ", كان من ممثليه فريد جلال وتوفيق الحبوباتي . ولكن الفيلم لم يلق النجاح بسبب ظهور الفيلم الناطق . عام 1937 توظف فوزي الشلق في البلدية كرئيس ورشة تصليح السيارات وفي الوقت نفسه استمر حتى 1939 يعمل في معمل الراديوات .

انتسب فوزي الشلق إلى الحزب الشيوعي السوري على يد فوزي الزعيم, وبسبب الوضع الميسور لفوزي لم تحم حوله أية شبهة . ولذا اتخذت قيادة الحزب من أحد بيتيه مسكنا للكادر السري . وجرى الأمر نفسه بالنسبة لرشيد جلال, حيث اختبأ عنده خالد بكداش في أيام ملاحقة الحزب الشيوعي في عهد حكومة فيشي سنة 1941 . وبعد أن عاد الحزب إلى العلنية عام 1942 أخذ اسم فوزي الشلق يظهر إلى العلن وفي عام 1943 تفرّغ للعمل الحزبي .

ولنقرأ ما كتبه عنه يوسف خطار الحلو: " كان فوزي محتشماً أنيقاً, ملؤه التهذيب مما حببه إلى الكثيرين في لبنان, الذين أصبحوا يستمتعون بمجالسته, وبخاصة في أثناء رحلات يوم الأحد . لقد كان فوزي , بالنسبة إلينا – والكلام ليوسف خطار - نحن " صعاليك " ذاك الحين, وبحكم وظيفته, قادراً على شراء ما يريد, وعلى الجلوس في المطاعم, والقيام بواجب ما يتطلبه الحصول على " المدقة مع مازاواتها "[24].

عام 1943 اختير فوزي الشلق أمين سر " جمعية أصدقاء الاتحاد السوفيتي في سورية ولبنان " . وأثناء الهجوم على مكتب الحزب الشيوعي بدمشق عام 1947 كان فوزي في عداد المدافعين عن المكتب, الذين وضعوا دمهم على أكفهم دفاعاً عن المكتب لصد الجموع الغاضبة . وبعد أن لوحق وسجن لفترة قصيرة انتقل إلى بيروت بناء على رغبة الحزب, وعمل في جهازه السري بين عامي 1948 و1951 تاركاً حياة النعيم والرفاه وراءه مضحيا في سبيل تحقيق الأفكار التي اعتنقها . وبسبب مرضه " ترك الحزب في أواخر 1951 " حسبما أفاد لي أثناء اللقاء به . وأضاف فوزي الشلق: " للتاريخ أقول إن الفضل الكبير في تأسيس الحزب الشيوعي يعود لخالد بكداش "[25].

---

[24]1- الحلو.. ص/200/.

[25]2- جرى اللقاء مع فوزي الشلق في بيته بدمشق بتاريخ 15/12/1974.

13- فلك طرزة ومقبولة الشلق: ذكر ناصر حدّة لإسكندر نعمة اسم الفتاة الدمشقية فلك طرزة, التي شاركت في نشاطات الحزب الشيوعي وكانت المرأة الوحيدة في الحزب أيام ناصر حدّة قبل 1937. وقد ورد اسم فلك طرزة فيما روته مقبولة الشلق أثناء مقابلتها لزياد الملا بتاريخ 26 شباط 1984 ونشر ما أفادت به مقبولة في كتابه المنوه عنه. كتب الملا:[26]

" مقبولة الشلق من مواليد عام 1921 في دمشق . بدايات التأثر بالفكر الماركسي عن طريق أخيها فوزي الشلق العائد من فرنسا عام 1936 متشبعاً بهذا الفكر . تقول مقبولة كنت الوحيدة في البداية أحمل هذا الفكر في المدرسة . شاركت في كل النشاطات السياسية في دمشق, وأذكر أني ألقيت كلمة حماسية ضد الاستعمار نُشرت في جريدة فتى العرب . شاركت في مؤتمر عصبة مكافحة الفاشية باسم طالبات تجهيز دمشق . بدأت أولى اجتماعاتنا الشيوعية في نهاية عام 1937 التي كان يحضرها حوالي العشر فتيات دمشقيات تأثرن بالفكر الماركسي وقتذاك وأذكر منهنّ . بدوية شمس الدين أخت رشاد عيسى, وأم سليمان فضة حلال وفلك الطرزة وأختي فتحية وغيرهنّ . كنّا ننشط في جو اجتماعي صعب للغاية, ولكن الحس الوطني أقوى من التقاليد . عملنا في البداية من خلال جمعية اليقظة الشامية ثم اتسع نشاطنا وازدادت العلاقات والصداقة وتعرفت على أمينة عارف زوجة نجاة قصاب حسن , التي اندمجت في النشاط الحزبي بسرعة وبقوة " .

لقد التقى كاتب هذه الأحرف بمقبولة الشلق عندما كانت موظفة في مكتبة وزارة التربية, ولا أعلم لماذا كانت متكتمة, كأخيها, أثناء الحديث معي . ومع ذلك وصلت عن طريقها إلى أخيها فوزي, الذي كان أثناء اللقاء به لا يجيب على الأسئلة الحساسة .

14- وصفي البني: من مواليد 1912 في حمص . والده تاجر مال فاتورة جملة ومفرق . ويصف وصفي والده بأنه برجوازية صغيرة[27] يذهب إلى بيروت يشتري منها بضاعة ويبيعها إلى البدو بالسعر, الذي يريده, والبدوي لا يفاصل في السعر . وفي الموسم يشتري التاجر من البدوي السمن والصوف بالسعر, الذي يحدده التاجر, أي سعر السوق . ويقول وصفي بالحرف: "نخزن الصوف والسمن حتى يرتفع ثمنهما فنربح بيعا وشراء . المسكين البدوي كان مستثمراً". هذا الشعور الطبقي العارم لازم وصفي البني طوال حياته . كما أن الحقد ضد البكوات بدأ ينمو عنده عندما كان يأتي هؤلاء للشراء في أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات ويحترمهم أهله بشكل لافت للنظر .

انتسب وصفي البني إلى عصبة العمل القومي سنة 1935, وكان عام 1936 موجّه الحركة في معهد الحقوق .. وبسبب مشاركته في الاضرابات الوطنية اعتُقِل في سجن القلعة, وهناك تعرّف على فوزي الزعيم, كما رأينا, وأخذ يتجه بأبصاره نحو الحزب

---

[26] الملا ... ص 131.

[27]- هكذا لفظها وصفي مستخدماً "برجوازية صغيرة" بدلاً من: "بورجوازي صغير".

الشيوعي . بعد أن أتمّ دراسة الحقوق عام 1938 ذهب إلى العراق للتدريس وقام هناك بنشاط فكري واتصال بقوى تنويرية عراقية فاتهم بالشيوعية . بعد عودته إلى سورية توظّف في مجلس الشورى, وفي تلك الأثناء دخل الحزب الشيوعي عام 1942. وعندما عادت " صوت الشعب " للصدور أصبح مراسلاً لها . وبالاتفاق مع خالد بكداش ترك الوظيفة والتحق محررا في جريدة صوت الشعب في بيروت سنة 1944. ولوصفي البني دور بارز في الحزب الشيوعي , الذي بقي عضوا فيه حتى وافته المنية [28].

15- جورج عويشق: من مواليد دمشق عام 1922 . كان والده تاجر مال القبّان وتوفي عام 1923 . وعاشت الأسرة من ريع العقارات التي خلّفها والد جورج . تعلم جورج في المدرسة الأرثوذكسية المعروفة بالآسية . وكانت الآسية حسب تعبيره " منارة للحركة الوطنية " . فقد تخرج منها عدد من القادة السياسيين والفكريين . وكانت نسبة أبناء البرجوازية المسلمة, حسب تعبيره, من عدد الطلاب تقارب ثلاثين بالمئة في ثلاثينيات القرن العشرين . واحتضنت الآسية مختلف تيارات الفكر السياسي . وفيها لجان لقيادة المظاهرات الوطنية المناهضة للانتداب . ومقابل الآسية الأرثوذكسية وُجدت المدرسة العازرية الكاثوليكية . وقبل منتصف ثلاثينيات القرن العشرين كان " الشعور الأرثوذكسي " معادياً للشيوعية, التي قضت على القيصرية في روسيا, ثم تراجعت مع الزمن هذه المشاعر المعادية للشيوعية, ودخلت أعداد كبيرة من شباب الأرثوذكس في الحزب الشيوعي .

اشترك طالب الآسية جورج عويشق في مظاهرات 1936 في شهري كانون الثاني وشباط . وأثناء تفريق الشرطة لإحدى المظاهرات ومطاردة المشاركين فيها هرب جورج عويشق ملتجئاً إلى الأزقة الضيقة، ومصادفة وجد في إحدى أزقة البحصة باباً مفتوحاً فولجه لينقذ نفسه من الاعتقال, فوجد في بهو الدار عدداً من أبناء حي القصاع وهم إيليا مباردي وحكمت ربوع وسيمون شمشيخ وعرف منهم أن هذه الدار هي مكتب للحزب الشيوعي . ومن هنا بدأت صلته بالحزب الشيوعي, وأخذ يتردد على المكتب وعمره لم يتجاوز الرابعة عشر . وبسبب صغر سنه وهو لا يلفت الأنظار كلّفه رشاد عيسى أحد أعضاء القيادة بنقل المناشير المخبأة بين الطعام إلى فوزي الزعيم في سجن القلعة كما رأينا . و"دخل" جورج عويشق الحزب الشيوعي عام 1939 وهو طالب بكالوريا . ثمّ انتسب إلى دار المعلمين وتعرّف على الطالب الشيوعي النشيط نجاة قصاب حسن وتأثر بأساتذته التقدميين فاخر العاقل وجميل صليبا وكامل عياد . بعد تخرجه من دار المعلمين عُيّن معلماً في درعا في أيلول سنة 1943 وبسبب نشاطه الشيوعي الكثيف مُنع قضائياً من التدريس ... كان عويشق في عداد السبعة عشر شاباً المدافعين عن مكتب الحزب الشيوعي عام 1947. وأثناء هربه من المكتب

---

[28]1- جرت المقابلة مع وصفي البني بدمشق بتاريخ 27/8/1974. وله مذكرات بخط اليد سلّمني إياها ثمّ أعدتها إليه, ولا أعلم أين استقرت بعد وفاته.

أطلق عليه أحد المحاصرين للمكتب النار فأصيب في رجله وهو لايزال يعاني عرجاً من تلك الطلقة .

أثناء الحملة الانتخابية البرلمانية في خريف 1954 كان جورج عويشق في قائمة الاتحاد الوطني المؤلفة من خالد بكداش ونصوح الغفري وجورج عويشق. وقد نال كل من الغفري وعويشق ثمانية آلاف صوت، في حين فاز خالد بكداش فوزاً مدوياً بعد احتلاله المرتبة الثانية بعد خالد العظم .

16- مذكرات نجاتي صدقي تلقي الضوء على جوانب من نشاط الحزب الشيوعي في دمشق عام 1937: ولد نجاتي صدقي في القدس عام 1905 وتعرّف على الحركة الشيوعية في فلسطين وانتسب إليها عام 1924 . وسرعان ما أوفده الحزب الشيوعي إلى موسكو للدراسة, وعاد إلى فلسطين عام 1929 وشارك بنشاط في الحزب الشيوعي الفلسطيني . سُجن عام 1931 مع محمود الأطرش وبقيا في سجن قلعة عكا حتى نهاية 1932 . عام 1933 أسهم في صدور صحيفة " الشرق العربي " التابعة للكومنترن في باريس, التي كانت توزّع سراً في البلاد العربية . بعد تعطيل الصحيفة عام 1936 استُدعِي نجاتي صدقي إلى موسكو في صيف 1936 وهناك قابل خالد بكداش في مقر الكومنترن . وبعدها أوفده الكومنترن إلى دمشق لمساعدة الحزب الشيوعي فيها . وتنقل المذكرات صوراً من وضع الشيوعيين عام 1937 نقتطف منها تلخيصاً أو نقلاً حرفياً موضوعاً ضمن قوسين الفقرات التالية:

أبحر نجاتي صدقي من مرسيليا إلى استنبول, ومنها استقل القطار إلى حلب. كتب نجاتي: " أقمت في حلب ليلة واحدة, وفي صباح اليوم التالي توجهت إلى دمشق وحللت في بيت خالد بكداش في حي الأكراد مؤقتاً, ثمّ استأجرت غرفة مؤثثة في شارع الحلبوني .. أما مكتب الحزب فكان في بيت قديم " في البحصة . " وكان في الواقع شبه ناد يتردد إليه الرفاق, بعد انصرافهم من أعمالهم أو من مدارسهم ".. " أول ما فعله خالد إن توجه بي إلى السراي لمقابلة شكري القوتلي.. وفايز الخوري .. ولطفي الحفار .. ثمّ معظم العاملين في الحقول السياسية والأدبية والصحافية بدمشق ..". وهذا دليل على مكانة خالد بكداش وعمق صلاته بالأوساط السياسية والفكرية .

" وبعد انقضاء أسبوع على إقامتي في دمشق أفادني خالد بكداش أن اللجنة المركزية للحزب قررت إسناد منظمة دمشق الحزبية إليّ, وبإشراف خالد بالذات, باعتبار دمشق قاعدته الأساسية, فهي مسقط رأسه, وفيها ترعرع . وانحصرت أعمالي الحزبية في الناحيتين التثقيفية والأدبية .

أما الرفاق الذين تعاونت معهم – والكلام لايزال لنجاتي - في دمشق فهم:

نجاة قصاب حسن .. كان في تلك الأيام تلميذاً نجيباً, شديد النباهة, وقد أصبح فيما بعد محامياً .

نشأت المرتيني .. أصله من بلدة الباب بالقرب من حلب [29] , جاء إلى دمشق بقصد طلب العلم, وكان محباً للأدب وله خواطر أدبية نُشرت في مجلة "الطليعة", كما كان يتسم بقوة الملاحظة والجرأة, بل المغامرة .. [30]

أحمد الشهابي .. شاب أعجب بالحركة الشيوعية بدوافع وطنية .

أحمد العشى .. ابن صاحب مقهى في ساحة المرجة, طالب علم .

فوزي الزعيم .. عامل شعبي, من قبضايات الأحياء, وكان شديد التحمس للحركة ويُعتمد عليه .

الدكتور نسيب الجندي .. طبيب أسنان في حي الصالحية, رجل دمث الأخلاق, طيّب المعشر, رومانطيقي الاتجاه .

وهناك عدد آخر من الأعضاء المسؤولين, منهم أدباء وطلاب وأساتذة وعمال يؤلفون اللجان المحلية لمنظمة دمشق الحزبية في ساحة الشهداء والسنجقدار والصالحية والحلبوني وباب توما وسوق الحميدية وحي الأكراد ".

ويقول نجاتي: ".. وقد أدخل خالد بكداش " تعديلات شرقية " في بعض المفاهيم الحزبية منها:

أولاً: استبدال عبارة " أمين عام الحزب " بـ" رئيس الحزب ", لأن هذه التسمية مفهومة أكثر في الأوساط الشعبية, ولها أثر أعمق في النفوس .

ثانياً: طلب من الأعضاء حين دخوله إلى المكتب أن ينتصبوا واقفين باحترام وإجلال, باعتبار أن العربي لايزال يخضع لعادات " بطريارخالية ", أي الخنوع للآباء والشيوخ "[31].

لابدّ من الإشارة هنا أن مذكرات نجاتي صدقي المكتوبة في بيروت عام 1976 عن عمله في الحزب الشيوعي السوري في عامي 1937و 1938 تتضمن الحقائق الممزوجة بالنقد المختلط بالدس و بالوخزات اللاذعة خصوصاً عند الإشارة إلى علاقة نجاتي بخالد بكداش, الذي كان يحترم نجاتي ويغار منه, كما ذكر نجاتي . الحزب الشيوعي الفرنسي لم يكن مطمئناً إلى وضع نجاتي صدقي ومرتاباً منه, ولهذا سطّر رسالة إلى الحزب الشيوعي السوري تطلب " تجميد " نجاتي صدقي, أي لا طرد ولا تعاون . " والذي حدث ", كما جاء في مذكرات نجاتي, " انصاع بكداش وزملاؤه لهذه الوصاية الشيوعية الفرنسية ". وبعد أن توقف نجاتي صدقي عن الكتابة في " صوت الشعب " انتقل إلى الكتابة في جريدة " النهار "... ومع أن نجاتي صدقي باع, مع الزمن, قلمه السيّال وذهنه المتوقد إلى شيطان المال للحصول على لقمة العيش المريح, إلا أن من يقرأ المذكرات يأسف لخسارة الحركة الشيوعية العربية لهذا

---

[29] أخطأ نجاتي صدقي في إرجاع موطن مرتيني إلى الباب وهو من إدلب و وقمنا بتصحيحها في الأصل أعلاه .

[30] لم يستمر طالب العلم الشرعي نشأت مرتيني فترة طويلة في الحزب الشيوعي بل غادره إلى التجارة وجمع الثروة في كل من بيروت وباريس والزواج من إحدى الأميرات . وقصته تصلح أن تكون مسلسلا تلفزيونيا لهواة جمع المال كمرتيني .

[31] 1- انظر: "مذكرات نجاتي صدقي" تقديم وإعداد حنّا أبو حنا, إصدار مؤسسة "الدراسات الفلسطينية"، بيروت 2001, ص/163 – 167/.

الأديب والمفكر الفذ . ومع ذلك فإن ارتياب الحزب الشيوعي الفرنسي وما ملكه من معلومات سلبية عن نجاتي لم تكن على ما يبدو محض الخيال . فقد أصدر نجاتي صدقي في أوائل ستينيات القرن العشرين كتابا بعنوان " الشيوعي المليونير " يكيل فيه التهم الرخيصة للشيوعية, وهذا دليل على المعدن " الملوث ", أو بالأصح المعدن الصافي, الذي لطّخته الأيام العجاف عندما قرر نجاتي صدقي أن يستمتع بالحياة بأية وسيلة كانت ...

تُرى هل كان أرتين مادويان على حق عندما كتب : " في بداية الحرب سقط القناع عن نجاتي صدقي وتبيّن انه يعمل مع المخابرات البريطانية "[32]. والجواب يجده الباحث في أرشيف تلك المخابرات متى كُشف عنه .

الفصل الحادي عشر

ربيع محبّك

والعمل مع فرج الله الحلو في حلب

خريف 1934 – مطلع 1936

بتاريخ 6/4/1988 التقيت في حلب بربيع محبّك أحد الشيوعيين الأوائل فيها, ومن الذين شهدوا البدايات الأولى لتأسيس الحزب الشيوعي في حلب في ثلاثينات القرن العشرين . تعرّف الفتى ربيع محبك على الشاب الشيوعي فرج الله الحلو القادم من بيروت إلى حلب في خريف 1934 موفداً من قيادة الحزب الشيوعي لتنظيم الشيوعيين وتثقيفهم وتدريبهم على النضال في سبيل بناء "إنسانية جديدة", هي عنوان الكتاب, الذي أصدره عام 1937.

ربيع محبّك من مواليد حلب عام 1915. توفي والده أحمد محبك في مطلع 1918 وهو جندي إجباري ساقته الدولة العثمانية شأن عشرات الآلاف من أقرانه للمشاركة في الحرب العالمية الأولى .

والدته فطوم بنت وحيد سيريس من مواليد 1890 عاشت طفولتها في كنف والدها, الذي ملك مطحنة لطحن الحبوب تسير بقوة البغال . أنجبت فطوم أربعة أطفال من أحمد محبك, الذي مرض وهو في ثكنة حلب وشارف على الموت فنقلته زوجته فطوم على حمار إلى مسكنهما بالأجرة في حلب وسرعان ما أدركته المنية .

---

[32]2- مادويان.... ص/108/.

كانت فطوم تتردد على الثكنة بين الحين والآخر حاملة الطعام لزوجها . وذات مرة أنبأها بخبر انتشر بين الجنود مفاده أن " البلشفيك قاموا وبدّهم يوزعوا بيوت بلاش على الفقراء ". هذا الخبر الهام الذي نقله الجندي أحمد لزوجته فطوم لابد من التوقف عنده لتبيان الأمور التالية:

- ثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا, التي قامت أواخر عام 1917 وصلت أخبارها وبعض من أهدافها إلى مسامع جنود الدولة العثمانية في حلب وغيرها .

- الخبر كما ورد على لسان فطوم, نقلاً عن زوجها, نترجمه مبسطاً بما يلي: إن البلشفيك, وهو الاسم المتداول للشيوعيين آنذاك, قاموا أي ثأروا, ويريدون توزيع البيوت على الفقراء مجاناً .

- من المعروف أن أحد الأهداف الرئيسة لثورة أكتوبر عام 1917 هو توزيع أراضي ملاّك الأرض الإقطاعيين على الفلاحين . ومع هذا الخبر وصلت أخبار أخرى منها خبر توزيع البيوت على الفقراء, الذي تلقفه أحمد وبشّر زوجته به, حالما في الحصول على بيت .

- هذا الخبر بتوزيع البيوت مجانا على يد البلشفيك استقرّ في الوعي الباطني لفطوم سيريس, التي ستصبح بعد عقد ونيف من وفاة زوجها السند الرئيسي لابنها ربيع الشيوعي الناشئ في منتصف ثلاثينيات القرن العشرين .

- أدى موت زوج فطوم مريضاً بسبب الحرب إلى تولد شعور الكره لديها للحروب, والطموح إلى العيش تحت رايات السلام .

الأرملة فطوم سيريس قامت بتربية أربعة أطفال وهي تعمل في العقادة مهنة زوجها . وكان بيتها في منتصف ثلاثينات القرن العشرين مخبأً لمطبعة سرية على الجلاتين للحزب الشيوعي . وعندما اعتقل ابنها ربيع في ربيع 1941 أيام فرنسا وفي عهد حكومة فيشي اشتركت في مظاهرة نسائية للمطالبة بالإفراج عن المعتقلين الشيوعيين في سجن حلب . يقول ربيع : إن النساء ذهبْنَ إلى المظاهرة يصطحبن أطفالهنّ, "واللي ما عندها ولد أخذت ولد من أقربائها". أي أن المظاهرة النسائية احتجت على الاعتقال للرجال من جهة وطالبت بإطعام الأطفال الجياع كون آبائهم في السجون . وحسب ما قال ربيع: المظاهرة قامت يوم الاثنين وإطلاق سراح المعتقلين, ومنهم ربيع وقريبه عبد المجيد سيريس تمّ يوم الخميس .

استهوت الرياضة ربيع محبك في صباه . وعن هذا الطريق توطدت صداقته مع أبناء العائلات في حارة البكرجه . وذات مرة خطب الزعيم الوطني إبراهيم هنانو في جامع البكرجه خطبة وطنية استهوت الشباب اليافعين في الحارة وأعمارهم من 15 إلى 16 سنة . فتعاهد هؤلاء على تأليف " حزب الفقراء " وصاروا يجتمعون ومعهم علاء الدين حمود شقيق بائع الجرائد في الحارة أكرم حمود . ولهذا طلب شباب حزب الفقراء من بائع الجرائد أكرم حمود الانتساب إلى حزبهم . فأجابهم أكرم: " أنا داخل في الحزب الشيوعي ". فسألوه: " شو هادا الحزب الشيوعي؟". فأجابهم: "

هذا حزب العمال والفلاحين, الذي سيستولي على الحكم ويخلصنا من الأغنياء ", حسب رواية ربيع . وقد أبدى الشباب رغبتهم في دخول هذا الحزب . فقال لهم بائع الجرائد أكرم حمود: سأجمعكم بشخص يشرح لكم مبادئ الحزب .

وبعد عدة أيام جمع حمود الشباب اليافعين بالصحفي بيير شداروفيان, الذي حدّثهم عن مراحل تطور التاريخ من الرق والإقطاعية إلى الرأسمالية والاشتراكية . ويقول ربيع أنه كان معجباً بحديثه, ولهذا أخذ يدعوا رفاقه إلى بيته لسماع أحاديث شاداروفيان . بعد مدة قال شاداروفيان لربيع سأجمعك بشخص اسمه " ناجي " . وكان أول لقاء لربيع بناجي " في دكان عقادة في سوق العقادين في تمْ سوق البلستان ". ويبدو أن اللقاء كان حميماً, وكان ربيع يصرف المشترين حتى يتسنى له سماع حديث ناجي . عبد اللطيف صاحب الدكان المجاور لدكان ناجي كان يسترق السمع مصغيا لحديث ناجي . وبعد ذهاب ناجي قال عبد اللطيف لربيع: " هادا سحرني بدي أجيب الشرطة وأسلّمه ". فأجابه ربيع: أنا رياضي إذا أخي أراد تسليمه سأضربه وأمنع أي يد تمتد إليه . وتكررت زيارات ناجي لربيع في الدكان وعبد اللطيف "يصرف الشراية" بغية الاستماع إلى أحاديث ناجي . بعد سبع أو ثمان لقاءات جلب ناجي نشرات وسلّمها سرا إلى ربيع طالباً منه توزيعها سراً تحت أبواب الدكاكين . تعاطف مع ربيع عدد من الفتيان شرعوا بحماس يوزعون المناشير الشيوعية, التي يجلبها ناجي لربيع . والطريف أن روح التحدي دفعتهم لوضع منشور في مخفر الشرطة القريب من الحارة . وكان ناجي ينبّه ربيع في كل مرة بضرورة الحذر والانتباه .

في تلك الأثناء أغلقت السلطة مكاتب الكتلة الوطنية في حلب . فجاء علاء الدين حمود وطلب من ربيع ورفاقه المشاركة في فتح مكتب الكتلة الوطنية في حارتهم المحروس من أحد الشرطة . وهكذا هاجم الشباب المكتب وجردوا الشرطي من مسدسه وفتحوا المكتب وذهبوا لإعلام أحد قادة الكتلة الوطنية حسن بك إبراهيم باشا بما فعلوا . وتطورت الأحداث في حلب وجرت صدامات بين الشرطة والوطنيين سقط نتيجتها عدد من القتلى, وقامت السلطة بحملة اعتقالات واسعة .

في ذلك اليوم تأخر ربيع في الوصول إلى البيت, فظنّت والدته فطوم أنّ ابنها اعتقل . فبادرت إلى أخذ كمية من البيانات الشيوعية الموجودة في البيت وأخذت توزعها على الناس علنا في الشوارع , وهي تردد: " إذا حبسوا ابني فيه شيوعيين غيروا بوزعوا المناشير ". وهذا الموقف يذكرنا برواية الأم لمكسيم غوركي .. أما ربيع الذي وصل متأخرا إلى البيت وعلم بمبادرة أمه فاتقد حماساً . وفي اليوم التالي وبعد دفن الشهداء الذين سقطوا في المظاهرات قام ربيع, في المدفن, بتوزيع بيان (منشور) الحزب الشيوعي, الذي يدين عمل سلطات الانتداب الإجرامي, على الناس علنا دون أن يعتقله أحد .

ناجي هذا الذي كان يتصل بربيع ويكتب البيانات التي يوزعها ربيع ورفاقه هو القائد الشيوعي فرج الله الحلو, الذي عرف ربيع فيما بعد اسمه الحقيقي . ويقول ربيع أن فرج الله الحلو بقي في حلب بعد أن تعرف عليه ربيع " سبع تمن أشهر "[33] أي أن أول لقاء لربيع بفرج الله جرى في شتاء 1935 وكان ناجي (فرج الله الحلو) يجتمع بالحلقة الشيوعية الملتفة حول ربيع وعددها من 12 إلى 14 شاباً في الدور أو في البساتين . وسنرى في الفصل التالي أن فرج الله نظّم حلقة أخرى, سيروي تفاصيل نشاطها عبد الرزاق دلالة .

ويمضي ربيع مستحضرا ذاكرته لتعداد بعض نشاطات فرج الله الحلو في حلب في الآتي:

- شقيق ربيع مدرّس الرياضيات عبد الفتاح محبك كان في البدء ضد الشيوعيين . وبفضل جهود فرج الله وصبره في النقاش انضم عبد الفتاح إلى صفوف الحزب . وبتوجيه من فرج الله الحلو قام عبد الفتاح بتأسيس نقابة المعلمين بحلب .

- دفع فرج الله الحلو كلا من نظمي الملقي وعلي الكردي لتأسيس نقابة الخياطين . وساندهما شيوعي ثالث هو معلم الخياطة جميل الصغير, الذي كان محله وراء الجامع الكبير .

- بسبب ثقافة نظمي الواسعة ووعيه الطبقي الواضح اقترح فرج الله الحلو على المجموعة الشيوعية الناشئة أن يكون نظمي مسؤولهم الحزبي .

- أرسل فرج الله عامل النول اليدوي عبد الله فلاحة للمدرسة الحزبية في موسكو . ويقول ربيع أن فرج الله علّمهم " الديسبلين " والسرية . فعندما ذهب عبد الله فلاحة إلى موسكو لم يعلم أحد إلى أين ذهب . وسنرى تفاصيل السفر في رواية عبد الرزاق دلالة .

- أشرف فرج الله الحلو على إضراب عمال (صنّاع) التريكو في معمل حج أحمد والي في خان الوزير من أجل زيادة أجورهم . ويذكر ربيع تفاصيل ذلك الإضراب الذي أدى إلى موافقة حج أحمد والي على زيادة أجور العمال ما عدا قائدي الإضراب ربيع محبك وعلي شحرور . ولكن العمال الآخرين أعلنوا أنهم لن يعودوا إلى العمل إذا لم تشمل زيادة الأجور كلاً من علي وربيع, الذين أقنعا العمال بضرورة العودة إلى العمل بدونهما حتى يتمكنوا من إطعام عائلاتهم .

- بعد اعتقال الزعيم الشيوعي الألماني إرنست تيلمان جرت عام 1934 حملة عالمية لإطلاق سراحه من سجون النازية . وصلت الحملة إلى حلب في الوقت, الذي كان فرج الله يقود المنظمة الشيوعية الحلبية بمساعدة بيير شاداروفيان . أعطى بيير ربيعاً (في حدود صيف 1935) عدداً من الأوراق عليها صورة تيلمان ومكتوب أن ثمنها عشرة قروش (ربع مجيدي) من أجل تمويل حملة تحرير تيلمان من سجون

---

[33]1- نذكّر هنا أن مهمة فرج الله في حلب امتدت من خريف 1934 إلى مطلع 1936.

النازية . وضع ربيع هذه الأوراق في جيبه الخارجي وسار في طريقه . ويبدو أن أحد الأرمن التحرّية (المخابرات بلغة هذه الأيام) كان يراقبهما وهما يتحدثان . فلحق بربيع وأمسك به وقال له: " بيير شاداروفيان شيوعي لا تمشي معه ". فأجاب ربيع: " أنا مسلم " ولا علاقة لي به . وسار ربيع في طريقه . وكان لربيع موعد مع فرج الله الحلو بعد نصف ساعة من هذه الحادثة, فلم يذهب للقاء فرج الله خوفاً من استمرار مراقبة التحري الأرمني له .

يتبين من أحاديث ربيع أن فرج الله الحلو كان حريصا أثناء تربية ربيع ورفاقه على العمل السياسي أن يخلق لديهم روح المبادرة في العمل , وعدم الاكتفاء بانتظار التعليمات من فوق . ومن المبادرات الطريفة , التي قام بها تلاميذ فرج الله الحلو في حلب في منتصف ثلاثينيات القرن العشرين ما سمعته عن لسان ربيع :

أثناء الإضراب الوطني الذي عمّ سائر المدن السورية في مطلع عام 1936 ذهبت مجموعة شيوعية حلبية إلى حماة وهي تحمل المناشير الشيوعية الداعية إلى النضال ضد الانتداب الفرنسي . تألفت هذه المجموعة من: صانع النول أديب بكري والكندرجي مصطفى أسد وبيير شاداروفيان وربيع محبك . وكانت المناشير مخبأة في " أسفاط بقلاوة " . وعندما تبيّن لهذه المجموعة " الخيط الأبيض من الخيط الأسود " قامت بتوزيع المناشير سراً وعادت بسرعة إلى حلب, وهي مزهوة بنشوة الانتصار, وبقدوم يوم تحرر الإنسانية من الأصفر الرنان . [34]

[34] تحرير البشرية من الأصفر الرنان أورده الزعيم الوطني والداعية النهضوي عبد الرحمن الشهبندر في معرض حديثه عن حركة العمال في أوروبا , وذلك في خطابه في أوبرا العباسية بمناسبة تأسيس حزب الشعب عام 1925 .

الخاتمة

آمال في الصعود بعد الهبوط

هل من سبيل إلى نهوض جديد للعرب في ظل الأوضاع الراهنة ؟ ..

لا شك أن عوامل الكبح والاستبداد والتخلف والظلام لا تزال تنيخ بكلكلها على المجتمعات العربية المشوّهة بحُقَن البترو دولار والركض وراء الأصفر الرنان وسيادة الذهنية الاستهلاكية . وفي رأينا إن التكاثر السكاني العشوائي يبتلع كل إمكانية للتنمية ويدفع بالملايين من الشباب إلى مهاوي الفقر والبطالة والأعمال الهامشية أو الطفيلية أو غير المنتجة .

الموروث التاريخي المملوكي والعثمّلي سيكون, كما في السابق , احد أسلحة قوى التخلف والظلام والتحجر لمنع التقدم والرقي , ولحصر الجوانب المضيئة والمشرقة في تراثنا العربي الإسلامي في الزوايا المهملة .

أمل ينير الطريق وسط دياجير الظلام . إنه الأمل في العودة إلى قلاع العقلانية , التي أسهمت في إشراق شمس الحضارة العربية الإسلامية في القرون الهجرية الأولى .

إنه الأمل باتخاذ العلم سبيلا للتطور , والعلم لا يأتي مع غيوم السماء كالمطر , بل هو مرتبط ارتباطا وثيقا باستخدام العقل والتجربة والمنطق , واحترام العلم والثقافة , ومعرفة قوانين الطبيعة واستخدامها لصالحه .

إنه الأمل برفع راية مناهضة الاستبداد بكل أشكاله وألوانه ..

إنه الأمل بانتصار الديموقراطية على مستغلي المجتمع والدولة ..

إنه الأمل بإقامة الدولة العربية الحديثة على أسس القوانين الوضعية واعتبار البشر مواطنين لا رعايا .. مواطنون يساوي القانون بينهم بعيدا عن العشائرية والطائفية والمذهبية وهي من مخلفات ما قبل الرأسمالية .

إنه الأمل بعودة الروح الكفاحية لدى الجماهير.

إنه الأمل بوحدة أبناء العروبة وإقامة دولتهم الديموقراطية الموحدة أو الاتحادية , التي يجري فيها توزيع الثروات وفق مبدأ إنتاج الفرد وعطائه , فلكل حسب ما يقدمه للمجتمع , وليس حسب انتمائه المذهبي أو الطائفي والعشائري , أو ولائه الحزبي والمقدرة على التسبيح بحمد السلطان .

إنه الأمل بانتصار الإنسانية على أعدائها ..

فإلى جبهة عربية نهضوية تضم بين جناحيها أنصار التنوير الديني والتحرر والديموقراطية والتقدم للوقوف في وجه وحوش الإمبريالية والصهيونية الباغية والطغاة من كل شاكلة ولون .

***

إن خصوصية العالم الإسلامي حاليا تكمن في أنه أحد العُقَد , بل العُقدة الرئيسية في الخطر على نظام التبعية العالمي , وذلك بحكم أرصدته العقائدية وموقعه الاستراتيجي وبحكم إمكانياته الهائلة ...

أرى أن " المقاومة الإسلامية " اليوم والحركات الإسلامية بعامة من افغانستان حتى المغرب العربي , الذي سمّوه " المغرب الإسلامي " , هي شكل آخر لحركات التحرر الوطني والقومي في القرن العشرين . ولكن الطابع العنفي للأجنحة المتطرفة لهذه الحركات هي من بعض جوانبها ردّ فعل على سياسة الرأسمالية البربرية , التي أعقبت الرأسماليات السابقة : الرأسمالية الثورية .. الرأسمالية الكولونيالية .. الرأسمالية الإمبريالية . بمعنى آخر : إن الرأسمالية البربرية اليوم , تسهم أيضا بوعي أو لا وعي في شحن الكره وتبرير قتل الآخرين للمجموعات المتطرفة في عالم الأطراف . وهي مسؤولة أيضا عن ردود الفعل العُنفية وتفجير الإنسان لنفسه , أو تفجير سيارة ملغومة في جَمْع من الناس لا حول لهم ولا قوة ... وهؤلاء " المفجرون " يتناسون الآيةَ الكريمة " ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق " .

ونحن كورثة للتراث العربي الإسلامي بجوانبه الإنسانية والمستنيرة والمنعتقة من إسار الجمود والتحجّر والتزمّت والتعصّب نقف في وجه الطغيان الإمبريالي الأميركي من جهة , ونُدين الاتجاهات المتطرفة في الحركات الإسلامية أو بالأصح الاسلاموية , وندعو إلى أشكال جديدة من النضال ضد الطغيان تنهل من التراث الإنساني العالمي , وتستند إلى الجوانب المضيئة من التحركات , التي شهدها التاريخ العربي الإسلامي . آخذين بعين الاعتبار الأوضاع العالمية وعدم القطيعة مع القوى الثورية في العالم ..

أليس من واجب القوى العربية الحيّة النيّرة توضيح أن معركتنا مع الإمبريالية الأميركية وحليفتها الصهيونية العدوانية هي ابعد من أن تكون , كما يعلن الاسلامويون , معركة بين الشرك والإيمان , أو هي استمرار للحروب الصليبية السابقة . إنّ إغفال دور العوامل الاقتصادية في معارك التاريخ , بما فيها المعارك الحالية يجعلنا نبتعد عن الأسباب الحقيقية للعدوانية الاستعمارية الأميركية , وهذا ليس في صالح معركتنا العادلة , بل تحريفٌ لها وخدمة لطغاة الرأسمال البربري الإمبريالي .

***

" نحن محكومون بالأمل " .. وباعتقادي ان الأمل , الذي نَشَدهُ سعد الله ونوس علينا أن نضعه في الإطار التاريخي لتطور البشرية , الذي يشهد الانتكاسات والتراجعات , وأحيانا الكوارث , ولكنه يسير , على الرغم من المحن صُعدا نحو الأعلى , نحو الخير والتقدم , نحو انتصار الأنوار على الظلمات ونحو تحقيق السعادة لسائر بني البشر . أليس " الخلق كلهم عيال الله " ؟ ..

وفي رأينا إن الإمكانية متوفرة لبناء مجتمعات (أو مجتمع) عربية بشرط أن تسودُها العقلانية والديموقراطية والعمل لخير الجميع واحترام مبدأ الجهد والكفاءة والمقدرة العلمية , وليس الولاء والتزلف وما شابه ... كما لا بد لمواكبة العصر من وضع أسس مجتمع يطرح جانبا مشاعر

الولاءات العشائرية والطائفية ليحل محلها الولاء للوطن والإخلاص للأمة ووحدتها .

إنه الأمل في الانتصار على الظلمات في كفاح أمتنا , والبشرية العادل على ظالميها .